زاوية

مصادر العنف في العراق

تيسير الالوسي

تطفو على السطح اليوم، في عراقنا التحرّر من ربقة عبودية الدكتاتورية وحكم الظلاميين الأجلاف ظاهرة العنف السياسي والاجتماعي، حتى أنّ مشكلة الأمان والاستقرار الأمني صارت تستحوذ على الأولوية من بين أولويات العمل الحكومي الحالي. فمن يقف خلف هذه الظاهرة؟ وما تفسيرها؟ وما إمكانات الحلول الناجعة لها؟ وما نتائج استمرارها في أفعال التخريب والتدمير؟ يقرأ علماء النفس والاجتماع هذه الظاهرة بوصفها نتيجة تنجم عن طبيعة الشخصية الإنسانية عندما تخضع للضغوط والتوترات التي تدفع بها إلى ردود فعل انفجارية أو عنفية شديدة. ولا يبتعد الساسة في قراءتهم عن تلك القراءة من جهة تبعيتها للتوترات السياسية والاحتقانات الاجتماعية. وهو ما مرّت به بلادنا طويلا فتعرّضت لشرور نتائجه. لقد وضعت الشخصية العراقية، طوال العقود الأربعة الأخيرة، أمام امتحان الكبت والمصادرة والاستلاب والمنع وجملة تنويعات عريضة من الضغوط السياسية والاجتماعية. فإذا كان الأمر السياسي قد أخذ من القراءات كثيرا، فضلا عن فضائح ما بعد السقوط والانهيار لنظام الغامرة والعنف، فقد اختفت نسبيا قراءة الاحباطات والضغوط الاجتماعية التي تعرض لها شعبنا وفئاته العريضة. ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر مصادرة حقوق الشبيبة في ممارسة حياتها الحقيقية، وتمّ الزج بها في أتون حروب أكلت منهم مئات الآلاف وعوّقت أكثر وتركت المرأة العراقية في مشكلات كبيرة جدية من مثل مشاكل العنوسة أمام مصاعب الزواج ومشاكل الحظر الاجتماعي بتعميق مظاهر انعدام الثقة وتعزيز مظاهر التخلف وتشويه العلاقات الاجتماعية وتخريبها حيث سيف تراجع القيم الاجتماعية التنويرية وتسليط سيف التقاليد البالية على رقاب فئات مجتمعنا. فليست الشبيبة ولا النساء وحدهم هم من يقع تحت ضيم هذا الواقع المزري، بل الفئات الأخرى، من مثل الآباء الذين يظلون تحت الشدّ والتوتر قلقا أو خوفا على أبنائهم من الوقوع أسرى العلاقات الرضية، كما هي حال الرعب من عمليات التسفيط التي مارستها أجهزة السلطة واتحاد نسائها تجاه المرأة العراقية، وصارت لغة التهديد والوعيد ورفع الأصبع أمام أنف المتغطرس علامة فارقة للوضع العام. كل ذلك وغيره سبّب وخلق تلك الضغوط التي تولّد عنها ردود الفعل العنفية الشديدة.

لكنّ حالة اتساع الظاهرة اليوم ليست خصيصة طبيعية ملازمة للشخصية العراقية، إنها إذا كانت مفسّرة بجملة الظروف والعوامل التي مرّ ذكرها فهي على صعيد الحياة العامة القائمة تعود إلى أسباب مختلفة تماما. فاليوم نحن أمام انفلات أمني يعود إلى الهزيمة المنكرة التي تعرض لها حامي السيادة العراقية (الجيش) نظير العملية إشغاله بحماية النظام والدكتاتور لا غير ومن ثمّ فالحقيقة هي في كون جيش السيادة قد سحق منذ زمن بعيد (منذ تولت العصابات أمر تطويعه وإخضاعه أو إذلاله). ونحن كذلك أمام انفلات أمني داخلي يكمن في خروج الأجهزة التي حمت النظام بالأمس من الساحة وكانت تفرض بالحديد والنار الصمت على الميدان الذي كان يغلي ويمور، وهي التي ساعدت بشكل مباشر على هذه الحالة المنفلتة عندما أطلقت قبيل الحرب التي أشعلتها سراح آلاف من المجرمين القتلة الذين صاروا اليوم مأجوريها، مثلما عرف تاريخها عندما كانت تؤجر البلطجية والشقاوات في محاربة الخصوم السياسيين. ولكنها اليوم لا تتورع عن الضرب خبط عشواء في مجتمعنا لأنّ المهمة تكمن في إشارة الرعب والهياج والقلق ومنع الاستقرار.

من جهة أخرى، وقت القوى المتطرفة، وليدة ذلك النظام للقبور ووريثته الفرصة حيث لا رادع لها من أجهزة حكومية منذ الانهيار المعروف، وبرزت للتسيّد الساحة، وهي تعرف رفض المجتمع لنطقتها. ولهذا، تلجأ للترويع والتخويف فوقف المجرمون المحترفون في بوابة الجامعات والمدارس والدوائر الحكومية ليكونوا حكّام الشارع الاجتماعي والسياسي بقوة القبضة والعصي والهراوات أو بمدار الرصاص وسطوته.

وليس بعيدا عن هؤلاء بعض الساسة وبعض الوجاهات (بالقوة) الذين تعوزهم الحيلة والذكاء مع ضعف برامجهم ورؤاهم وتعزلهم، فيلجأ بعضهم إلى سياسة الاغتيال والاختطاف والتهديد وأشكال العنف المختلفة. ونحن نشهد يوميا أشكال العنف هذه ومظاهره المختلفة وأكثر ما توجّه ضد الفئات الشعبية بغاية واضحة هي إخضاعها لسياسة هذا المتطرف أو ذاك البلطجي وهما سنتوان.

وفضلا عن هذه المصادر للعنف هناك قوى أخرى تقف وراءه، تلك هي قوى وليدة جديدة من شبيبة تربّت في ظل ظروف قاسية ومشوّهة تحاول الاستقلال بخطّ تفسيرها الوقائع القائمة وأحداثها وتربط خطّا بين جدل العنف وجدل الانتصار للمستقبل المستقل وانتقاما من كلّ من يرون أنهم تخلوا عنهم في الظروف المعقدة السابقة، وعلى أية حال، فإنّ هؤلاء، إذ يضعون أنفسهم اليوم في خضم ظاهرة العنف، يمكن تقويم أوضاعهم بخصوصية مختلفة، ولكنهم بالمحصلة اليوم يخدمون الظاهرة ويفعلونها بمسميات مختلفة متعددة باتجاه الأسوأ. تلك هي القوى التي تقف وراء ظاهرة العنف اليوم وهي بالأساس (وفي الغالب، حيث توجد أقلية مخدوعة) قوى سياسية ليس من مصلحتها استقرار البلاد وأمان العباد... لماذا؟ لأنّ ذاك سيكون الطريق لنهاية سطوتهم وسلطتهم من جهة.. ولأنه سيكون الطريق للحريات الاجتماعية والسياسية ووقف الدولاب العنف وقواه وأنصاره بل إنهاء له وتجفيفا لمنابعه.

إنّ فحل هذه المعضلة ممكن وليس ببعيد. ولكن قبيل التأكيد على هذه الحقيقة، لنضع إجابة عن حال استمرار الظاهرة وسيطرتها على الواقع العراقي. إنّ النهاية المأساوية وسطوة الظلام المطبق، لعصور لاحقة، ممكنة ومحتملة في حال سيطرة الظلاميين الإرهابيين بأي شكل وبأي مظهر. والثمن هو حياة شعبنا ومصيره ومستقبله بالكامل. وسيخلو عندها الجو لسلطة العنف، والقتل، والاغتيال، واستهان الكرامة، ولا أحد بمقدوره البوح باسمه وبشخصه إلا بإذن البلطجية القتلة.

إنّ الصورة لن تقف عند إجبار الطلبة والطالبات على قبول حمايتهم، بل ستتجه إلى الخطوة التالية، خطوة طلب الثمن، وسيبتدئ بوضع الخارطة الفكرية السياسية لهم على جدران الحياة وليس الدارس فحسب. ثم يلي ذلك تعطيل الطالبات عن الدراسة بالمطلق والعودة لا إلى عصر الحريم بل إلى عهد التسرّي والإماء والجواري وما ملكت أيمان (عضلات وأموال) أولئك الجهلة. أما الرجال فسيكونون أسرى عصر العبيد (الخصيان، نورد المصطلح هنا لأسباب تتعلق بتحليل أهداف أولئك المغامرين المرضية).

إنّ أبسط متعلم يمكنه الحكم على ما يجري وعلى منطقه وعلى ما يراد منا نحن العراقيين. والصراع اليوم يقوم بين الجهل والظلام وقوة البلطجية من جهة والتنورين والعلماء وكل فئات الشعب صاحبة المصلحة في امتلاك حرياتها وحقوقها والوصول إلى ما تتطلع إليه في حياتها الجديدة. لذا فبداية الحلّ رفض الخضوع للتهديدات الأوباش وعلى المجتمع أن يولد آليات دفاعه الحضاري عن خطوة تحرره من عبوديته وتوجهه إلى عالم حريته ولا نستحي من تضافر جهود الخيرين في العالم ولا من استغلال التعارض بين مصالح الأشرار وليس في السياسة ما يمكن أن نخجل منه إذا ما صبّ في تأكيد مسار مصالح الشعب والوطن. ومصالحنا في مزيد من تأكيد لغة السلام الاجتماعي والسياسي من جهة ورفض لغة العنف وعزل قواه وإسكاتها بحجة القانون ووسائله المتحضرة.

ولا حراجة من وقف حتى تلك الرجعيات الدينية والسياسية والاجتماعية عندما تدخل بوعي أو بغيره في مسلسل خطايا العنف ومردوده الخطير على مصالح شعبنا الحيوية في حاضره ومستقبله، على أن يتمّ كلّ ذلك على وفق إجراءات تحالفية وطنية معلومة. وأضع هنا مقترحا أمل تفعيله بخلق تحالف شعبي عريض ضد الإرهاب والعنف بعامة ويقوم بفعاليات حضارية متنوعة تقف بوجه هذه الأوضاع الشاذة.

اليسار العراقي المعاصر، خلاص الإنفتاح أم تشوش الوعي؟ (2-4)

ازمة اليسار العالمي واليسار العراقي التقليدي

التوسير

غارودي

فهد

عارف معروف

لانقول جديدا اذا قلنا ان البنى الاجتماعية السياسة الغربية ومؤسسات المجتمع المدني وطبيعة ممارسة السلطة وادواتها وتداولها والعقلانية والحوارية وعلاقة الافراد بالاخر وقدسية حقوق وحريات الانسان مسألة ليست ارادية ذاتية نابعة من رغبات الاوربيين او الامريكان بل هي نتاج لعملية تاريخية طويلة ومؤلمة استمرت لقرون وتخللتها الثورات والصراعات والتوازنات والمساومات والتراجعات والاحباطات، حتى وصلت الى بلورة ما نراه اليوم، وهي عملية مستمرة لانها عملية (تصير) اجتماعي لا تنتهي، مثل اية عملية كونية، وان الحلم بتحقيق مثل هذه السيرة او القفز الى ثمارها وما وصلت اليه هو مثالية وارادوية لن يكون لها حظ من النجاح بمجرد الرغبة والاعلان، انها مسار اجتماعي سياسي اصطراعي ينطوي على الكثير من التضحيات والعمل وللواجهات، وان ماتحقق لدى بعض النماذج (والجزر) التي انتقلتها الرسمالية العالمية كاسواق عالمية او مراكز تجارية اقليمية او (منارات) وسط محيطات متخلفة او اقاليم لصناعات مكلفة بيئيا او كمصادر قريبة للمواد الخام او العمالة الرخيصة او لاي سبب آخر من الاسباب وجعلت منها بنى شبه مدمجة بالرسمالية العالمية، كسبت بالاندماج ميزات وخسرت اخرى، والعملية الاجتماعية فيها مستمرة وصراعاتها مرهونة بطبيعة التوازن بين الرسمالية الحديثة وقوى السوق والعولمة وثقافاتها المقتحمة من جهة والبنى التقليدية وموروثها الاجتماعي والسياسي ورغبتها وارادتها في البقاء واعادة انتاج نفسها من جهة ثانية والقوى الاجتماعية الحية ضمن هذه البنى ومصالحها ووزنها من جهة ثالثة، اي ان ماتحقق ليس نهائيا كما انه لم يتحقق بمجرد الرغبة الذاتية او خلال زمن بسيط، ولزمة حافة الهاوية بالنسبة لنمو اسيا الا تزال ماثلة في الاذهان، اما (مجتمعات) الخليج العربي فثمة جمر تحت الرماد وارهاصات ونذر بتشنجات مرضية قد يكون بعضها مميتا. ومهما كان من امر، فاكثر هذه البلدان، تلك التي (نجحت) في التجاوز والاندماج لاتعاني من ضغط ارث تاريخي ثقيل لبنى فكرية وثقافية عريقة ومرغلة في القدم مناوئ في الجوهر لمنطق التغيير والانفتاح، اي انها لاتعاني من كون الموتى يمسكون بالاحياء.

ان البحث الاجتماعي مبحث حديث نسبيا، وهو في صيرورة مستمرة ولا شيء قاطعا ونهائيا، ولكنه بحكم طبيعته يفتقر الى الكثير من الامور المساعدة التي تفيد منها العلوم الاخرى كالفيزياء او البيولوجيا مثلا، فهو لايمكن ضبط شروطه مختبريا، ولايمكن اعادة التجربة فيه، ولايمكن حصر معطياته او متغيراته كميا، اضافة الى ان ميدان بحثه نفسه يرتبط باكثر الاشياء قربا الى لهوى واثارة للعواطف عند الانسان في حين يحرص الكثير من الاحيان على طمس حقيقة وتمويه معالمه، ولنعتبر، هنا، بمباحث اخرى ذات صلة، مثل مبحث النفس، وهو مجال عزيز ومثير للعواطف ايضا فترى كيف ان بعض مدارسه مازالت تلقى صدا وعداء واتشويها، بل نبذا وتكفيرا في الكثير من المجتمعات وكذلك الاوساط الثقافية والسياسة برغم ان جزئياتها وبعض قوانينها واكتشافاتها دخلت وقبلت ليس ضمن العلم النفسي الرسمي فقط، بل اصبحت ضمن بديهيات ومفردات المعرفة الانسانية العادية، ان سعي البشر الى السيطرة على بيئتهم الخارجية لايتمثل في الاهتمام بالطبيعة ومحاولة ترويضها، الذي نهض على اساسه تاريخ العلوم والمعارف الطبيعية وانما شمل ايضا محاولة السيطرة على بيئتهم الاجتماعية ومعرفتها والتمكن منها، ولقد حلم الانسان منذ زمن طويل الى صياغة قوانين او علاقات قانونية في مجال البيئة الاجتماعية او الوصول الى حالة الامساك بسلاسل الاسباب الاكيدة والحاسمة وراء الوقائع الانسانية، وهو حلم اصيل وبرغم كونه حديثا نسبيا مقارنة بالعلوم الاخرى التي توجهت الى (الموضوع) وليس (الذات) باعتباره للطلب الاكثر حيوية واولوية في صراع البقاء، فان هذا اللحن ليس جديدا كل الجدة، فاذا تجاوزنا اساساته الوغلة في القدم كالخرافة والاسطورة مرورا بالصيغ الاكثر تقدما في محاولة الانسان ان يعقل (الذات) ويفهم علاقاتها وقوانينها ويتنبأ بسيرورتها او يحددها ان امكن، فان الماركسية لم تكن باكورة، وحتى في تراثنا العربي الاسلامي نفسه، ثمة امثلة ساطعة، شهرها الخلدونية التي اهتمت وسمت (علم العمران) ووصلت الى خلاصات نيرة وقد فهمت التاريخ على انه (نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومباديها عميق) ولانعتقد ان الانسان ومحاولاته هذه وصلت الى نهاية المطاف بل نعتقد ان الطريق لايزال في بدايته وان لاكف ولا حصر لهذا الدفع الاصيل.

واضافة الى الطموح في السيطرة على البيئة الاجتماعية والمساهمة في تحديد مساراتها وتجاوز ازماتها، فان حلم المساواة وانتهاء الظلم والاستغلال واخوة البشر وسعادتهم وغناهم العام الشامل كان، ولايزال، حلما بشريا مستمرا والجنة ليست سوى صورته الطلقة واليوتوبيات كانت محاولات وامنيات بشرية في المجيء بالجنة الى ارض الانسان، كما كانت بالفعل مصدرا من مصادر الفكر الاشتراكي، لكن هذا الفكر كان يحاول مقاربة العمل وتلمس ضالته في رحابه، وكان يفلح في التحول الى العلم الاجتماعي بقدر ما يوصل تلك الاحلام ويلتمس لها، دون افتعال، اسسا ودواعي اجتماعية وخلفيات موضوعية دافعة وضرورات وحتميات ترتبط ارتباط السبب بالنتيجة والعلة بالعلول.

ان مقولات التفسير المادي للتاريخ والصراع الطبقي او كون الظاهر الفكرية والثقافية والوقائع السياسية هي انعكاس لوقائع او اسس او علاقات ابعد غورا واشد اصالة تكمن في طبيعة البناء الاجتماعي او الاقتصادي او الصيرورة التاريخية امر لايبعد من بنات افكار ماركسية وحدها، فحلوال التاريخ كان ثمة اشارات لها وارهاصات بها، والخلدونية نفسها كما سبقت الاشارة ضرب من تفسير الوقائع التاريخية على اسس مادية، وفي الوروث لم تلق كل الحوادث على كاهل القدر، بل عرفت واعتمدت هنا وهناك علاقات السبب والنتيجة والعلة والعلول والصالح والفكار. اما العلم الغربي الحديث فمعظمه يعتمد، منذ زن طويل، المادية كاساس في تفسير الوقائع ومعالجته لها، وقد دخلت في صميم البناء العلمي بل البناء العقلي العام واصبحت جزءا لايتجزأ من العقلانية، ان اي مبحث من المباحث الحديثة او شخصية علمية او معهد او جامعة في الغرب وامريكا حصون الرسمالية والليبرالية تعتمد في فهمها وتفسيرها للظواهر على هذه الأسس بل حتى لغة ومتابعات وسائل الاعلام الغربي الرأسمالي اليومية تفهم وتفسر الوقائع وفقا للاسس المادية الكامنة في خلفية الصورة.

لسنا في معرض الدفاع عن الماركسية او النزعة الاشتراكية ولا تنزيهها عن الاخطاء والارتباكات، صغيرة كانت ام جسيمة، كما لا نعتقد بانها، هي او غيرها، يمكن ان تكون حلا نهائيا وبديلا شاملا او بناء فكريا سليما في كل جوانبه وحاسما وكليا لايأتيه الباطل من خلفه او من بين يديه، فمثل هذا الوقف او الزعم ليس من العلم انما من العاطفة، وشتان بين هذا وتلك والماركسية وبنطاق اوسع الاشتراكية، فكر فساتي يعكس بالضرورة النقص وعدم الاكتمال الذي هو من طبيعة الاشياء فالكمال هو النهاية، نهاية التناقض والدفع نحو التطور والتغيير ان القبول بان الكون كله هو عملية تصيّر وتخلق مستمرين يعني في اساسه نقض الاكتمال والنهائية، وهذا معطى علمي وعقلاني، ولذا فان اية فكرة فلسفية او منظومة فكار هي ميدان مفتوح للاغناء والتطوير والنفي والاضافة وحينما نرى الوضع الحالي. علميا او محليا وعلى شتى الصعد. يجب الا ننسى ابدا انه (عملية Process)، وانه بعدما يكون عن الاكتمال والنهائية، بل هو جزء من صيرورة كونية، وبالنسبة لذبول افكار واسباق اخرى او موت تجارب وارهاصات اخرى او تغير مناهج والدعوة الى اخرى ما كانت ولن تكون نهاية العالم او (التاريخ)، ويجب ان نتأنى في اطلاق احكام قاطعة ونهائية حتى نستبين. هكذا هو منطق العلم. ومن المنطلق ذاته كان اسباق او وجود ازمة ما، وفي اي مجال من المجالات، ليست مشكلة، بل المشكلة في تجاهل الازمة او انكارها او عدم تبينها او استخدام وسائل في حلها تزيدها تفاقما وتعقيدا، لقد انتهت بنى رسمالية الدول الاشتراكية الى طريق مسدود وانهيار متوقع لكن هذا لا يعني ان الرسمالية، مثلا، هي بديلها الوحيد والطلق الصحة والصلاحية، فلهذه البنية ازماتها المنعكسة في كل جانب من جوانب الحياة واورامها المستفحلة هي الاخرى.

ان الازمة مظهر من مظاهر الحياة وليس الموت، ان لحياة والصحة لاتعني انعدام الازمة، بل ان انعدام اية ازمة لايعني سوى الموت او الجمود والكذب، فالازمة هي التحدي الذي يستدعي الاستجابة والازمة هي التناقض الذي يجمع القوى باتجاه الحل الامثالي فكر مثالي او ساذج او مهزوم، والافكار مسار التطور في اي علم من العلوم يعكس على الدوام ثنائية الازمة والحل او التحدي والاستجابة. واسباب الازمة قد تكون كثيرة ومعقدة، لكنها دائما تخص طبيعة التكيف، وتعود بالنتيجة الى علاقة الذات بالموضوع او الوعي بالواقع او الفكرة بالممارسة، ولقد عانت منظومة رسمالية الدولة الاشتراكية وبناها الفكري والسياسي والاقتصادي ازمة متفاقمة فتهت الى انهيارها لكن هذا الامر ليس النهاية الحتمية لكل ازمة، فثمة ازمة دفعة تنفتح على حلول وانفراجات كبرى. على اية حال، انعكست الازمة موضوعة البحث بالتاكيد على اليسار التقليدي العراقي مثلما انعكست بتاثيراتها على غيره، لكنها لم تكن كل ازمته ولا الجوهري منها.

سبقت الاشارة الى ان ازمة اليسار العراقي امر بيّن ومتطلب حيوي وتحد كبير كان في اساس الكثير من الصراعات، ويمكن تلمس اطر هذه الازمة في مأزق عام، لا يخص اليسار تحديدا، وانما الفكر الحديث عموما ياتي من علاقة الحديث او العصري بالتقليدي، يعاني منها ليس العراق او الوطن العربي فحسب، بل (العالم الثالث) كله، وفي كل مجالات الحياة، حيث يولد حالة من الصراع العنيف احيانا بين استمرارية التقليدي وانتحام الجديد وهو يشمل كما قلنا، كل مجالات الحياة اليومية ويلقي بظلاله وتداعياته على كل شيء، وبالطبع ضمن ذلك مجالات الفكر والثقافة والسياسة، تعاني منه ومن تداعياته كل مدارس وتيارات الفكر الحديث، ومنها الفكر او التيار اليساري لابوصفه نتاج لحضارة الغربية الحديثة فقط، وانما لكونه يمثل تحديا وتجاوز احتى ضمن لحضارة الغربية، برغم ان بعض مكوناته وجدت لها الارهاصات البعيدة، ان هذه الازمة او العلاقة او المأزق تستدعي بالضرورة حلا او توفيقا ما، وهي الدفع لحقيقي وراء للطلب بضرورة التأصيل والتأسيس عليه.

ان البنى التحتية ووسائل الانتاج ووسائل المعيشة المادية وكمالياتها هي الاكثر قبولا وقدرة على الاقتحام وفرض نفسها وتطويع التقليدي لصالحها في حين تواجه جوانب الفكر والعلم والثقافة العادات والسلوكيات الصاحبة، اي كل ما اصطلح عليه (البناء الفوقي)، صعوبات اكبر بكثير وتحديات اشد ضراوة بما لايقاس، وهي تدخل في صراعات هائلة قد يكون بعضها عنيفا ودراميا.

لكن الازمة او المأزق المذكور لاينحصر في مواجهة منتجات الحياة العصرية من افكار وثقافات، بل ينسحب على طرف الصراع الآخر، فهو يواجه ايضا استمرارية البنى التقليدية وثقافتها ونسقها، ويطرح في مواجهتها احتمالات تحديات ضارية، وهي لذلك قد تفشل في الاستجابة لهذا التحدي او ذاك مثلما قد تنجح في التكيف او التكييف هنا وهناك، تبعا لموازين قوى الصراع الفعلية في هذا البلد او ذاك، وتنعكس عدم قدرتها على الاستجابة او التكيف او التجاوز في مظاهر خطيرة جدا في بعض الاحيان، اذ تكون الهجرة والتكفير احد صوره الظاهرة للموسة وان مثل هذه النتائج تحصل ايضا لدى بعض تيارات الفكر الحديث التي تنتهي الى التطرف في الرفض او الاستسلام او اليأس والانحسار او الهروب الى امام محاولة الاندماج كليا للحضارة الغربية.

وهناك وجه آخر للازمة، يتمثل في مدى مقاربة هذا الفكر او ذاك للواقع ومدى قدرة ادواته ومنهجياته على تلمسه بصورة صحيحة، وبالتالي فهم مشكلاته وقراءته ومكامنه وتلمس وتشخيص الحلول للموسة او للمكنة او الاكثر استجابة او قدرة على البقاء لها. والمحك الحقيقي لمدى صحة هذه المقاربة او فشلها هو الواقع نفسه واجابته خلال سياقه اللاحق، ويعكس الفكر اليساري ازمته في هذا الجانب ايضا مما يستدعي جهدا استثنائيا في التأصيل والتأسيس.

ان ازمة علاقة الذات بالموضوع او الوعي بالواقع لاتخص اليسار فحسب، وان التهويم خارج اطار الواقع الملموس وعدم النجاح في تاصيل نظري متكامل او حاسم يتناوله يطول الشيوعيين او الاشتراكيين العراقيين فحسب، وانه ليس ازمتهم وحدهم، بل هو يشمل كل القوى السياسية والتيارات الثقافية الاخرى، من رسماليين وليبراليين وقوميين واسلاميين، الذين لم يفلح تيار منهم حتى الان في تشخيص او تأصيل بدائل او منظومات فكار ملموسة او مشاريع بديلة قابلة للتحقق او التطبيق، بل لليبراليين انفسهم، في اساندهم تجربة تاريخية عالمية نيفت على الاربعة قرون على اقل تقدير وامكانات فكرية وارشيف وممارسة عالمية كبيرة ومتنوعة ونماذج اجتماعية وسياسية شاخصة لم يفلحوا في اي بلد عربي في تطوير او تأصيله ما او تكييف ناجح ما او مشروع ما وبقيت طروحاتهم تهويمات فكرية غير فاعلة او مؤثرة، مغتربة لاتجدلها استجابة اجتماعية او تجذرا واقعيا او تطبيقا حيا ملموسا، وبقيت مجرد نقل واستنساخ ميكانيكي على الصعيد الفكري والسياسي وتجارب ركيكة امانتها الواقع وهي تحبو عبر تصفيتها او تزييفها على صعيد الممارسة اما القوميون فلم يخرجوا عن اطار الخطابية الجوفاء والرؤى والاحلام الزائفة والايهامية، وجل ما نجحوا فيه انهم كانوا في خلفية بضعة انقلابات عسكرية جاءت بسلالات خرافية الجهل وانظمة حزبية اختزلت لاحقا بفعل طبيعتها نفسها، الى عوائل وعشائر، اهلكت الحرث والنسل واستعبدت البلاد والعباد واثمرت رعبا والهة صغارا ووأدت ليس احلام القوميين فحسب، بل طالتهم بتصفياتها الجسدية والفكرية، اما البدائل الاخرى، سلفية او اسلامية، فامر تجاربها المنتهية او القائمة او بدائلها الموعودة امر اختبره ويختبره الواقع الموضوعي، واعطى ويعطي اجابات واضحة وصريحة بصددها.

فاعلية العقل والرأي

عند ائمة الفقه والفكر

رغم أن تاريخ المذاهب الإسلامية شخّص في الفقه الإسلامي مدرستين، هما مدرسة الرأي العراقية ومدرسة الحديث الحجازية، إلا أن (الرأي) كان معمولاً فيه من قبل المذاهب كافة. فأهل الحديث وإن مالوا للنصوص والرواية، وهم يختلفون من إمام إلى آخر في درجة التمسك بالنصوص، استعملوا الرأي في المستجدات. وهذا يشمل التشيع والتسنن على السواء.

رشيد الخيون

ورد الفعل (رأى) وتصريفاته حرفيا (المشاهدة بالعين، الإحساس والإدراك بالعقل)، في أكثر من ثلاثمئة آية، وورد كلمة (الفكر) وفعل التفكير في تسع عشرة آية، وحضرت كلمة (العقل) وفعلها في حوالي خمسين آية. أما أبرز حديث نبوي يضع (الرأي) من لوازم الاجتهاد، بعد النص القرآني والسنة النبوية، هو قول الرسول لمعاذ بن جبل وهو يودعه إلى اليمن قاضيا من قبله، قيل، إن الرسول سأل معاذا كيف (تقضي)؟ قال، "أقضي بما في كتاب الله، قال، فإن لم يكن في كتاب الله؟ قال، فبسنة رسول الله، قال، فإن لم يكن في سنة رسول الله؟ قال، أجتهد رأيي ولا آلو. فقال الرسول، "الحمد لله الذي وفق رسول الله لما يرضاه الله"

سمح هذا العدد الكبير من الآيات التي ورد فيها (الرأي) بوصفه مشاهدة وتفكير اوتعقلا للفرق الفكرية أن تضع (الرأي) ومن ثم (العقل) في المقدمة، وتتصدرها مدرسة (الرأي) في الفقه، وإمامها أبو حنيفة النعمان، ومدرسة الاعتزال في الفكر ورؤساؤها من البصريين واصل بن عطاء وأبو هذيل العلاف ومن البغداديين بشر بن المعتمر، وكان أبرز المنتسبين للاعتزال الجاحظ ولغويون ومفسرون، قبل وبعد شيوعه في عهد الخليفة عبد الله المأمون.

يلخص الإمام أبو حنيفة النعمان مذهبه في (الرأي) بالقول، "قولنا هذا رأي، وهو أحسن ما قدرنا عليه، فمن جاء بأحسن من قولنا فهو أولى بالصواب منا" وبالمقابل يلخص الإمام محمد بن إدريس الشافعي مذهب الحديث بالقول، "إذا وقد وجدتم لي مذهبا، ووجدتم خبرا على خلاف مذهبي، فاعلموا أن مذهبي ذلك الخبر".

غير أن المرونة والتداخل بين المذاهب الفقهية فسحت المجال لقاضي القضاة المعتزلي عبد الجبار الأسدأبادي لترجيح كفة العقل، وبالتالي ترجيح الرأي بالحجة التالية، لأن به يميز بين الحسن والقبيح، ولأن الكتاب حجة، وكذلك السنة والإجماع، وربما تعجب من هذا الترتيب بعضهم، فيظن أن الأدلة هي الكتاب والسنة والإجماع فقط، أو يظن أن العقل إذا كان يدل على أمور فهو مؤخر. وليس الأمر كذلك، لأن الله تعالى لم يخاطب إلا أهل العقل، ولأن به يعرف أن الكتاب حجة، وكذلك السنة والإجماع، فهو الأصل في هذا الباب".

تاريخيا تمتد جذور مدرسة (الرأي) إلى عقود الإسلام الأولى، حيث الصحابي عبد الله بن مسعود وولايته لبيت المال بالكوفة، وكان قارئها وفقيهها الأول، والفقيه التابعي إبراهيم النخعي، والفقيه حماد بن أبي سليمان، وعن الأخير أخذ أبو حنيفة الرأي. هؤلاء الأربعة عاشوا بالكوفة وتصدروا أمور الفقه فيها. ومنذ إمامة النخعي ظهرت تسمية (أهل الرأي).

لعل أول مؤرخ أشار إلى (أهل الرأي) بالاسم هو صاحب (الطبقات) وكاتب الواقدي ابن سعد، ثم تبعه ابن قتيبة في كتابيه (المعارف) و (تأويل مختلف الحديث)، والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد). وسمي الأخير أبا حنيفة (إمام أهل الرأي وفقيه أهل العراق).

ومن مؤرخي الملل والنحل سمى عبد القاهر البغدادي أبا حنيفة بصاحب الرأي، وميزه عن فقهاء الحجاز، بقوله، "أما الفرقة الثالثة والسبعون فهي أهل السنة والجماعة من فريقي الرأي والحديث".

وذكر الشهرستاني بوضوح (أصحاب الرأي) بالقول، "أهل العراق، هم أصحاب أبي حنيفة النعمان بن ثابت، ومن أصحابه، محمد بن الحسن، وأبو يوسف يعقوب بن إبراهيم القاضي، وزفر بن الهذيل والحسن بن زياد اللؤلؤي، وابن سماعة، وعافية القاضي، وأبو مطيع البلخي، وبشر المريسي". وقال الشهرستاني، في سبب تسميتهم بأصحاب الرأي، "لأن أكثر عنايتهم بتحصيل وجه القياس، والمعنى المستنبط من الأحكام، وبناء الحوادث عليها، وربما يتقدمون القياس الجلي على آحاد الأخبار".

وللإمام مالك بن أنس قول آخر في (الرأي)، هو، "متى تبعت الرأي جاء رجل آخر أقوى منك فاتبعته فإنك كلما جاء رجل غلبك تبعته، أرى هذا الأمر لا يتم". ولا ندري ما هو قصد تحذير أبو حيان التوحيدي عن يحيى بن معاذ التالي "من تعلم علم أبي حنيفة تعرض للسلطان" هل هو مذهب الرأي أم القياس الذي اشتهر فيه الإمام؟

وربما يكشف فقهاء الدولة الأموية، في عصر أبي حنيفة، الإمام عبد الرحمن الأوزاعي جانبا من غموض راية التوحيدي السالفة الذكر، بقوله، "إنا لم ننقم على أحد حنيفة إنه رأي، كلنا يرى، ولكننا ننقم عليه أن يجيئه الحديث عن النبي، صلى الله عليه وسلم، فيخالفه إلى غيره".

ورغم ما ورد على لساني الإمامين مالك والأوزاعي فإن ما ورد في (دائرة المعارف الإسلامية) من أن أهل الرأي "اسم أطلقه أهل الحديث للانتقاص من قدر خصومهم من فقهاء الشرع" لم يثبت صحته، ولا سيما أن ابن قتيبة، وهو من أصحاب الحديث ومن الشديدين على الإمام أبي حنيفة ومذهبه، ذكر مالك بن أنس وسفيان الثوري ضمن أصحاب الرأي. فإذا كان الرأي في الأصل يدل على الرأي السديد، حسب ما ورد عند مؤرخي الملل والنحل، مثل البغدادي والشهرستاني، فما هو وجه الانتقاص في التسمية؟ كما لم تكن دائرة المعارف الإسلامية واضحة فيما ذهبت إليه بتعريفها لأهل الحديث من "إنهم فرقة جديدة ظهرت بالهند طاعة أو تقليد المذاهب السنية الأربعة". تعكس مذهب (الرأي) على سلوك الإمام أبي حنيفة مبكرا، فنجده في مطلع شبابه يفاضل بين مجالات العلم المتاحة له آنذاك، وأي مجال سيطرق. يذكر تصرفه هذا بطلبة الصف المنتهي من الثانوية العامة اليوم وهم يختارون ويستشيرون لولوج ما يتلاءم مع استعداداتهم. قال، "لما أردت طلب العلم، جعلت أتخير العلوم"، وبعد الاستشارة والدراسة لأهمية هذا العلم وضرر ذاك رسا على علم الفقه، فكان فيه إماما.

إن تأكيد القرآن الكريم على (الرأي) أو (فكر) أو (العقل)، وما أشارت اليه الأحاديث النبوية وما سلكه أئمة الفقه بدرجات متفاوتة وما تبنت المذاهب الفكرية من مقالات يجعلنا أمام حقيقة واحدة ما بناه المسلمون من حضارة وعمران وفنون وما يوازيها من حركة عقلية وفلسفية ما كان لها أن تكون لولا فسحة الرأي والتفكير والتجاوب